

عبد الملك فضاء .. المعلم الذي دوخ الاستعمار



لقلم:
محمد
الرزقي
مرداد

كان يعرف كيف يصل إلى القلوب، ويمتلك النفوس، كان جديا ولكن في يسر وانسراح. كان دقيق الملامح وبعينه بريق يلعب فيه الذكاء والظنّة، وفي نظرته عزم وتصميم. كان رخييم الصوت عذب الإرسال، له في قراءة القرآن أو الأناشيد نغم خاشع أخاذ. إذا تحدثت الملك الأصابع، وإذا اعتلى المنبر الأنطق كالسهم إلى غاية، لأنه كان صادق القول، واضح العبارة وقوي البرهان.

نجله عبد الرحيم فضاء

يعتبر الشهيد عبد الملك فضاء أحد أحرار الجزائر، الذي نذر حياته لمحاربة الجهل والنقاد الناشئة من برأت الظلام، ومن أجل مقارعة الاستعمار باللسان والقلم. سار نحو غايته رابعا مناهم مستغفرا باحذر، لأنه آمن بشعبه المبكّل، وآل على نفسه ألا يدخر أي جهد من أجل تحريره، ولما كانت نفسه كبيرة، فقد استلذ ركوب الخطر حتى لانا الشهادة في مثل هذا الشهر من سنة 1957م، فمن هو هذا المعلم الذي دوخ الاستعمار الفرنسي، فتخلص منه بطريقة وحشية؟

نشأته وبداية مساره التعليمي

ولد عبد الملك فضاء يوم 19 أبريل 1920م، بقرية ثارث، بلدية بني شبانة، دائرة آث وارثيان، وهو ثالث أبناء الشيخ محمد السعيد أبهول. درس على يد والده، الذي أفضاه عن الدخول إلى المدرسة، على عادة الأسر المتعلمة في المنطقة، فحفظ القرآن وتعلم مبادئ اللغة العربية، وقد ألهه هذا التحصيل للالتحاق بدروس عبد الحميد بن باديس بالجامع الأخضر بمدينة قسنطينة سنة 1937م، وزاول دراسته هناك مدة ثلاث سنوات، أي إلى غاية وفاة أبي باديس، ثم عاد إثر ذلك إلى مسقط رأسه، فأنسب مدرسة في محيط مسجد القرية الذي كان يشرف عليه، وشرع في تعليم الصغار وتوعية الكبار بطريقة تربوية عصرية، سرعان ما أتت أكفها، إذ بدد بها ظلام الجهل وما نجم عنه من ممارسات اجتماعية غريبة عن الإسلام الصحيح، وهكذا كان رجوعه إلى القرية بداية عهد جديد، عهد التوير المشرب بالوطنية الصادقة.

تجنيدته في الحرب العالمية الثانية

جاءت أحداث الحرب العالمية الثانية لتغضب حياة هذا المعلم المناضل، بسبب استدعائه إلى الخدمة العسكرية تحت علم الفرنسي، وهو الأمر الذي رفضه جملة وتفصيلا، إذ لا يعقل أن يدافع عن شرف المستعمر المستعمر، لذا هرب من قريته ودخل عالم السرية، وقيل إنه مكث بعض الوقت في مدينة الجزائر. وزعم مراسلات اجتماعية غريبة عن الإسلام فرنسا من الوصول إليه، فأرسل مباشرة إلى ساحة القتال بأوروبا سنة 1943م.

هذا ومن المحطات الهامة الجديرة بالذكر في حياته مشاركته في مظاهرات شهر ماي 1945م، إثر استناده من إجازة، تزامنت مع خروج الجزائريين في الشوارع، للمشاركة في الاحتفال بعيد النضج، باعتبارهم مسلمين في هزم الفاشية والنازية، فقاد ملبع، أت وارثيان إلى بوفاة للمطالبة بالاستقلال والحرية، ليعود بعدها إلى أوروبا، بعدما علم بنية الحاكم العسكري ليوفاة التي قرر الإبقاء على. وبشكل أنه استفاد من أدائه للخدمة العسكرية، فاشكبه وعيما سياسيا، جعله يدرك التحولات السياسية الكبرى في العالم، التي أسفرت عن أفول نجم

شاملا بالمعربي الكبير الشيخ العربي التبسي، ويجمع الوعود، وآيكيا الحضور بكاء الأبتهاج والسرور، ويعددهما تقدم الشيخ العربي الرئيس الثاني لجمعية العلماء، في يده مفتاح المسجد، فقال بعد كلمة وبيرة: إنني افتح مسجدكم هذا نيابة عن القامنين بشؤونهم من أهل تازمالت لندخل إلى بيت الله الجديد آمنين. (1).

مساهمته في الكتابة التويرية

وظف عبد الملك فضاء الكتابة أيضا كوسيلة للتواصل مع الجمهور العريض، وقد أسلمت على بعض مقالاته المنشورة في جريدة البصائر في غضون سنة 1951م، كذلك المقال الموسوم زالي المعلم الذي أشار فيه إلى أهمية دور المعلم في المجتمع، باعتبارها شخصن الأجيال بالأصالة والمعاصرة، جاء فيه قوله: إن أمانة الأمة بين يديك، وفلذات أكبادها بين ذراعيك، وعدة مسؤوليات يحملها كل الواجب فوق كتفيك، فلا أنت بالرجل الأمين، المتعصم بحبل الله المتين، ولأنت بالرجل المشفق على حوزته، والحافظ على صيانة عرضه، إلا إذا أعدت نفسك، وناولته جزاء من الأهتمام، وبرهنته على شخصيتك، وعلى واجبك الذي يظف بعهدك بجائلت الأعمال، ويرتأ مستحقك، وركضت نفسك بدشاكه والخصم المستميت، ضد كل عايت وعات، ثابتا صابرا متحليا برداء اسمه الرجاء والأمل، متحملا في سعيك كالحب الغناء والتسك، غامضا طرفك، مادا يمينك، ووراعها قوة إيمانك وقيفتك، للقبض على زمام ضالتك التي هي منتهى أملك. (2).



هذا وقد نجح عبد الملك فضاء في استقطاب الصغار والكبار إلى المدرسة والمسجد، وفتح باب التدرس أمام البنين والبنات، الذين كانوا يتلقون تعليما عسريا شمل كل المواد التي كانت تدرس في المدارس الرسمية، (المواد العلمية والأدبية والتاريخ والجغرافيا)، فضلا عن الأناشيد الهادفة إلى تحصيل التلاميذ بالترزية والوطنية، والنشاطات الثقافية المتنوعة كالمسرح للسانين الأمازيغي والعربي والمجلة المدرسية، وتدريب التلاميذ على مراسلة زملائهم في مدارس أخرى، وتطبيق المحطات المدرسية، وتخرج عدد كبير من الطلبة، التحق بعضهم بالثورة، وصار كثيرهم ذخرا للجزائر بعد الاستقلال، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، عميروش محمو (الكاتب الخاص لعقيد عميروش لبعض الوقت)، أحمد عيسى عزالي (إطار في الدولة الجزائرية)، رجذال أبراهيم (كاتب خاص للشهيد عبد الرحمن ميرة)، محمد بلقاسم بهلول (نائب في البرلمان).

بناء مسجد تازمالت

أدرك عبد الملك فضاء أهمية المسجد في توعية الأمة، باعتبارها منبرا هاما للتواصل مع الجمهور الواسع، الذي ذهب ضحية سياسة التجهيل الاستعمارية. لذلك اقترح بناء مسجد كبير يليق بمقامه، وألغى تازمالت، وبالعلم أسرع الجميع إلى احتضان هذا المشروع، فتبرع المحسنون بالمال الوافر، وشرع في إنجازها بجماس كبير، إلى أن أنهيت الأشغال، وكان يوم تشييده في 20 أبريل سنة 1954م، من الأيام المشهودة في بلدة تازمالت، إذ أقيم حفل كبير حضره رجال العلم والطلبة والجمهور، قدموا من العاصمة ومن مدن وفري عديدة، لتقديمهم فئس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ العربي التبسي، والشيخ العباس بن الشيخ الحسين، والشيخ أحمد سنحون، وعبد الكريم العقون، والربيع بوشامة، وأحمد شقار، والشيخ عمر العراوي، وعبد الرحمن شيبان وغيرهم. وأسقيت هذه تازمالت بفيضهم بالأناشيد والتكبير، والتقبل أهل كلمات مؤثرة، وكذا قصائد شعرية عديدة تحت كلها في تشجيع العلم والأعمال الخيرية. وكان من عادة الحركة الإصلاحية، أن تقدم الوفود المدعوة لحضور محفلات التشييد تبرعات للمؤسسات الجديفة، (مساجد ومدارس)، فقل مسجد تازمالت حظها منها، وفي هذا السياق قدم وفد مدينة الجزائر الذي ترأسه الشيخ عمر العراوي مبلغ نصف مليون فرنك، وفي وقت لاحق انتهى العمل بتنظيم وجبة غذاء على شرف الضيوف، كانت في مستوى الكرم الحامسي، والجدير بالذكر أن جريدة البصائر قد خصصت مقالا مطولا لهذا الحفل، وفعه صاحبه باسم زحاضر، جاء فيه في الخصوص: "... ويعد الوصول إلى رحاب المسجد صمعت موسيقى الأناشيد وتقدم الأستاذ المصلح الشيخ العباس بن الشيخ الحسين إلى مكبر الصوت فألقى كلمات رحب بلكم الجمع الحاضر، وأعرب عما يمكنه أهل تازمالت من حب وتضامن لإخوانهم الوافدين عليهم من نواحي القطر كله، فأثر تأثيرا عميقا في النفوس بأسلوبه المعروف، ثم قدم تلمذة وتلميذا من تلاميذ المدرسة، فحربا بدوريهما تحريا

مساره المهني في المدارس الحرة

- من الطبيعي أن يقضي عبد الملك فضاء -الذي تتلمذ على يد عبد الحميد ابن باديس- مساره المهني في مدارس جمعية العلماء الحرة، وحدد نجله عبد الحميد، مجمل خدمات والده فيها على النحو التالي:
- 1 مدرسة النصيحة بالجزائر العاصمة (1947 - 1948)
 - 2 مدرسة المرشدة بالجزائر العاصمة (1948 - 1949)
 - 3 مدرسة القصر بالمعجبية، ولاية البويرة (1949 - 1950)
 - 4 مدرسة إبل على، ولاية بجاية (1950 - 1951)
 - 5 مدرسة تازمالت، ولاية بجاية (1951 - 1955)
 - 6 مدرسة التهذيب بمدينة جحوظ، ولاية تيزابز (1955 - 1956)
 - 7 مدرسة تازمالت (الفترة الثانية) (1956 - 1957)

منهجه في العمل

يستخلص مما ذكر أنه قضى شطرا كبيرا من مساره المهني في مدرسة تازمالت، وهناك أشمرت جهوده التربوية والإصلاحية والسياسية، التي شملت الصغار والكبار، فأرسلت عدة بعثات طلابية إلى تونس والقاهرة منذ سنة 1954، لم أآخرها بعثة 1956م التي ضمت حسب المعلومات المتبقية من الأستاذ حسن بهلول- الطلبة: خليفتاني طيب، خليفتاني عبد الرحمن، أوشيع م. الطاهر، أوشيعه إلفتران، لحلو ملبع، أولبصير صالح، موهو عبد الرحمن، أحسن للعربي، وغيرهم، وكتب نجله عبد الحميد، واصفا منهج والده التربوي بقوله: "ضرب الشاهد بقرينة في تازمالت، فأحدث دوبا في كل المنطقة، وتفظن العدوا إلى خطورة الوضع، وفرر أن يفتق في وجه هذا المد. لكن كهيات، بصفة تدريجية استطاع الشيخ عبد الملك أن يحول ذهنيات من الإذعان السائد إلى الغضب والتورم. تخطى الأحداث والمعيات وواجه المواقف بسلام برعاية من الله الذي وهبه ما يحتاج إليه من حذر وتصبر وعزيمة، كان إماما مصلحا ومعلما ماهرا وتأثرا على أوضاع البلاد المتدنية، فهز المنطقة هزا ليس

منازل القلم عاقبته الشهادة

شاه القدر أن يعين عبد الملك فضاء عضوا في لجنة امتحان الشهادة الابتدائية، الذي تقرر إجراؤه بمدرسة التهذيب، الكاتبة بحي كليمافرن بالجزائر العاصمة، يوم 15 جويلية سنة 1957م، فضل بالعاصمة لهذا الغرض يوم الجمعة 12 جويلية، وحدث أن مز مع زملائه في سيارة، بشرع النفق الجامعي، حيث أقام الفرنسيون حاجزا مناهم، وبعد التحقيق في هوية أفراد الجماعة أطلق المسكر سراح الجميع، باستثناء عبد الملك فضاء الذي سبق إلى أحد مراكز الاستطلاع، أين عذب تعذيبا شديدا، ثم أخرج إلى الشارع على من سيارة جيب، وأمر بالرحيل، وعلى إثر ذلك أطلق عليه النجود وأبلا من الرصاص، فأردوه قتلا، ثم أعلنت جرائد الاستعمار في اليوم الموالي أن القوات العسكرية الفرنسية قد قتلت هاربا يدعى عبد القادر (بدل عبد الملك) فضاء، مدير مدرسة قرآنية بتازمالت. هذا وأل شك أن القوات الفرنسية قد تلقت الضوء الأخضر للتخلص منه، من سلطات تازمالت، التي كانت تتخفن مثل هذه الفرضة، ولم يسلم جثمانه لأحد لمدة يومين ثلاثاء 16 جويلية، ليدفن في مقبرة سيدي محمد تحت حراسة القوات الفرنسية، التي لم تسمح بحضور جنازته إلا لأفراد عائلته (3). وترك الشهيد أزمة لم يتجاوز سنها 30 سنة، وعلى عاتقه سبعة أطفال، فرحم الله الشهداء وأسكتهم فسح جنازه.

الهوامش

- 1 البصائر، العدد 270، الصادر في 7 ماي 1954م.
- 2 البصائر، العدد 144، الصادر في 26 فيفري 1951.
- 3 محمد الحسن فضاء، من أعمال الإصلاح في الجزائر، ج1، دار هومة، 2000، ص 273.

Ferradrezki@yahoo.fr

وتحرص على حياة الرهبان بأي تكلفة كانت، كما وزعت على مصالحن صور الرهبان بالبحية أو حتى من دونها، وكنت أقوم شخصيا بتعريف كل عناصر الكتاب التي تعمل في مجال مكافحة الإرهاب على هؤلاء المختطفين، إنهم بصفتي كنت المحافظ السياسي للوحدة، وكنت أنقل لهم ما يتأمن من أوامر عليا، على أن القيادة العسكرية والجنرال محمد الرهبان شخصيا الذي كان حينها قائدا لأركان الجيش، يحرص على حياة المختطفين همما كان الثمن، بل كشأ نسمعه مرارا وتكرارا عبر اللاسلكي يؤكد على ضرورة الحرص على سلامتهم.

وأؤكد أمام الله ثم أمام التاريخ، أن الرجل ظل يأمر جميع قوات مكافحة الإرهاب في حالة شك بوجود أحد الرهائن مع عناصر تابعة للجماعات المسلحة، فإنه يمنع منعا إطلاق النار عليهم أو التعرض لهم بسوء، ولو كان يسبب ضحية لهجوم أو طلاقا ناريا من طرفهم، بل كما توحى الخطة والحطة في إصابة أي عنصر ممن يحتمل أنه أحد الرهبان المختطفين. وقد زارنا خلال فترة الاختطاف الجنرال العوي عاشور وهو قائد قوات الدفاع الجوي عن الإقليم في تلك الأثناء، وكان برفته عدد من القادة العسكريين الساميين، بل ما حدثت فيه معنا اللواء عاشور هو ضرورة الحرص على عدم التعرض للمدنيين، لأن الجزائر ستكون على فوهة بركان وخاصة من الطرف الفرنسي، وأذكر أنني سألته شخصيا عن قضية الرهبان المختطفين، فرد بالحرف الواحد: لو حدث مكروه لهم ستدفع الجزائر الثمن نعم غالبا، وستنتهم نحن بالوقوف وراء قتلهم ولو كانوا الآن مع زليجان، وسنعمل على استرجاعهم أيما كيتفوا للعال، وفرنسا التي تأتي بعض المتطرفين على ترابها، حقيقة هذه الضمائل الراهبية.

■ يتبع ...

www.anouarmalek.com

رفضت أيضا أن يتاجر الآخرون بتجربتي العسكرية كما جرى لبعض الضباط من قبل، واليوم صاروا بعضون التواجد ندما على الأقل في قرارة أنفسهم، لأنهم باعوا أنسامهم وشرفهم في أسواق النخاسة والنخاسة، ولمن كان هدفهم ليس الحقيقة ولا الدفاع عن الأبرياء ممن سطوا في تلك المرحلة الدموية، بل الأهداف مبطنة بدأت تظهر خيوطها للعلن الآن، وستكون أكثر وضوحا في المستقبل القريب.

من قلب المؤسسة العسكرية إبان مجزرة الرهبان

لقد تمت خلال عام 1996 لما وقعت المذبحة، عمل ضابطا في المجموعة 14 للوسائل المضادة للطيران والتابعة لقوات الدفاع الجوي عن الإقليم، وقد كنت حينها مسؤولا عن المحافظة السياسية التي صارت تسمى مصلحة الإصلا والإعلام والتوجيه، كما أنني كنت قبلها رئيسا لمصلحة أدار الصواريخ. وقد كنت خلال تلك الفترة بهذه المجموعة، مركزا عملياتي لمكافحة الإرهاب، يتواجد بالطارية النارية الثالثة ببوزيرية وآخر بأولاد فايت، ويرتبط مباشرة بالمركز الأم للقطاع العسكري في بني مسوس (الجزائر العاصمة). التي تخصص في مجال محاربة الجماعات المسلحة وحماية أمن المنطقة التي كان يعيث فيها فليشة وجماعته قتل وتدميرا.

وكانت لنا كتيبة تعمل في أعالي العاصمة ويمتد نشاطها من منطقة بولوغين مرورا بالسيلاست وبوزيرية إلى غاية غاية باينام الساخنة، وقد كنت أتابع في مركز العملياتي المتواجدة بالريافة حيث مركز قيادة المجموعة المضادة للطيران، ما يترد عبر اللاسلكي بين قادة كتائب الجيش في المدينة والبلدية والعاصمة وبومرداس وتيزي وزو والبويرة، من خلال الراديو الذي نملكه في إطار هذا العمل. وكنت أسمع من خلال الشفرات التي بحوزتي ما مفاده، أن القيادة تدعو

معرفة لأوهام المتاجرين بدماء رهبان تبجيرين (4/2)



لقلم:
ابو مالك

ولما سألته عن الكثيرين الذين أشار إليهم في حديثه، ذكر ما لم يتجاوز عدد الأصابع، وهم من الأشخاص الذين يحلبون في إناء المخابرات الفرنسية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وآخرون لم يدخلوا الجزائر منذ التماثيات ولا يعرفون شيئا عن الجبهة الإسلامية المحظورة، وإن كانوا لبسوا جثتها وتزينوا بعمامتها، لأجل إيجاد مكان لهم بالمشهد الإعلامي في مرحلة كان الشأن الجزائري يصنع الحدث بامتياز، خاصة في فرنسا بالذات.

قلت له معلقا على الأسماء التي ذكرها، والتي يعرفها الكثيرون من خلال إطلاقاتهم عبر الفضائيات، أنا لا أهتم برأي فلان أو موقف علان وكل واحد له أسبابه ودوافعه ومصالحه وتجارته، ما يهمني هو الشيء الذي أرى نفسي على حق فيه، وقد اقتنعت بما شاهدته كثيرا، بينما التي عاشيتها ولا يمكن لأي كان مهما بلغت حيثته، أن يجعلني أغبر موقفي فيها، وأيضا توجد أمور سمعتها مباشرة من الذين عاشوها في الجبال، وليس ممن يريدون الحصول على الامتيازات، ولو كان على حساب البلد، والحقيقة الواضحة كالشمس في رابعة النهار.

انتهى الحوار بيننا والذي أوردت القليل من جوانبه، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أنه لا يمكن نشر شهادتي على الإطلاق، لأنها تتنافى والموقف الذي يتبناه اللوبي النافذ في فرنسا، والمسيطر على وسائل إعلامها، ويكني دلالة على خطر الملف والغام، ما تعرض له المحقق الصحفي الفرنسي ديدي كوتان، الذي قيل إنه سقط في 2004/02/15 من شرفة شقة بالطابق السابع من عمارة في باريس، أي ذلك إلى مصرعه الغامض والذي تدور حوله أسئلة كثيرة، وفي وقت كان يستعد فيه